دلالة "العربي" الجزائري في رواية الغريب لألبير كامو

أ. د.عبد القادر توزان

جامعة حسيبة بن بوعلي \ الشلـف

تاريخ الارسال:03/11/ 2021 تاريخ القبول2021/10/17 تاريخ النشر2021/11/01

الملخص

يتناول المقال دراسة تحليلية لدلالة "العربي" الجزائري في رواية الغريب لألبير كامو. توزع البحث على محورين، تعرضنا في المحور الأول :تحليل السرد الروائي عند كامو،أما في المحور الثاني: دلالة "العربي" الجزائري في رواية «الغريب». و يعتبر هذا البحث دراسة جديدة في البحث عن الدلالات المتعددة التي قد تحتويها الاستعمالات المختلفة لهذه الكلمة

.

This article entitled: (Meaning of the Algerian term '' Arabic '' in the novel '' The foreigner '' by Albert Camus. Divided into two parts: the first deals with the novelist analytical analysis in Camus. The second and last part, it was reserved for the research of the different meanings and signifiers of the term '' Arabic '' widely mentioned in his novel. This research concerns a new subject which for the first time tries to discover the different signifiers of the Arabic name used in a stage of our critical history.

: الكلمات المفتاحية

العربي، الجزائري، الغريب، الاغتراب، العبث، البير كامو

–تحليل السرد الروائي عند كامو:

كتب كامو في الأدب و المسرح و الفلسفة و السياسة و الصحافة، و لم يكن ليتناول موضوعا واحدا في فن واحد من هذه الفنون, بل تمتزج معظمها أحيانا في رواية أو مسرحية أو مقال واحد، لتعطي كلا متكاملا و متناسقا. إن هذا الاتجاه المعاصر في الأدب، وإن كان له الفضل الكبير في تطويره، فقد شكل نوعا من الدراسات المتشعبة للعمل الأدبي الواحد. واختلفت بذلك نظرة الباحثين "ودراستهم للرواية الواحدة أو المقال الواحد، وأصبح كاتبها تارة أديبا وأخرى فيلسوفا. ولم يكن كامو ملتزما في أدبه بالواقع الحسي أو الفكر الفلسفي التجريدي البحت، بل أن "تعبيره عن العادات الفكرية فضلا عن تجاربه السياسية التي كتبها في صورة مسرحيات، وكذلك البحث عن المصادر الرئيسية للقلق الأخلاقي التي أماط عنها اللثام"،[1] كان دائما في صورة حسية ملموسة، استطاع أن يقارب بها بين القلب والعقل. وهذا الاتجاه الممزوج بين الفن والفلسفة، كان كامو يعيه ويدركه أشدّ الإدراك، لأن الفنان أو المفكر في نظر الكاتب، كلاهما ملتزم بموقف يعرف بصاحبه.[2]

و تحدث كامو مسهبا، وفي مجالات مختلفة عن الأدب و الفن، لينتهي إلى أن هدف الفن في المجتمع ليس مقتصرا على الأديب وحده أو الجماعة، لأنه ليس متعة فردية، بل وسيلة لإثارة أكبر عدد ممكن من البشر من خلال صورة مثيرة عن الآلام المشتركة بينهم.[3] أما الفنان فهو "لا يختلف دوره عن الواجبات العسيرة، و ليس من واجبه أن يكون اليوم خادما لمن يصنعون التاريخ، بل هو في خدمة أولئك الذين يذهبون ضحيته[4] كما أنه ليس من مهمة الأديب أن يتخلى عن المبادئ السامية من أجل أن من يحقق ذلك يصبح أنسانا آخر يحمل أسمه لينتهي "يجب أن يعرف الثروة أو الاشتهار، لأن كل من يسعى إلى ذلك: بالهروب منه، و ربما سيقتل في يوم من الأيام فنان نفسه".[5] و كامو كفنان، لا يترفع عن المجتمع ليقبع في برجه العاجي، لأن الفن هو الذي علمه الانقياد إلى المجتمع، إنه واحد عن ملايين البشر من أمثاله.[6]

والفنان اليوم، لا بد له أن يبكي ماضيه السعيد، خاصة إذا كان هذا التحول مفاجئا و مباغتا من حياة رخوة إلى صراخ مستميت:" لقد ظل بحلبه التاريخ شهيد يعلل نفسه بآمال الغرب، و أسد يتغذى من دماء أمثاله، أما الفنان فهو المشاهد الحائر حينا، و المعلل نفسه بالغناء، لكنه ظل في أغلب الأحيان يشجع الشهيد و يدفعه إلى حتفه ليتمتع الأسد في شهيته".[7] و إذا كانت هذه هي حياة الفنان قديماً، فإن عليه اليوم أن يقف في صف الإنسان ليناضل من أجل تحقيق العدالة في صف الإنسان، ليناضل من أجل تحقيق العدالة و الذود عن المبادئ السامية التي بها تصان كرامة الإنسان وتضمن سعادته.

لو تساءلنا إلى أي حد استطاع كامو أن يطبق هذا المنهج، لوجدنا الكثير من النقاد من يؤمنون بأنه ظل وفيا لفنه، و أن جائزة نوبل "كانت دليلا على نزاهته الفكرية، كما كانت شاهدا على قدرته و استطاعته بدون ضجة ،أن يقف في وجه الظلم و الألم لم بحده أمام عصره"[8] . و على سؤال حول عشر كلمات يفضلها، أجاب الكاتب: العالم، الألم، الأرض، الأم, الناس، الصحراء، الشرف، الفقر، الصيف، البحر. "[9] و يمكننا أن نلخص

هذه المعاني، و التي تدور حولها كل أعماله الأدبية و الفكرية، في كلمتين متقابلتين هما: الموت و الحياة. و من خلال هذه المقابلة، حاول كامو أن يكون أدبه صورة "لانتصار الإنسان على الوجود و المصير، و إظهاره مظهر العز و النبل".[10]

الرواية لدى كامو، هي: "ذلك العالم الذي يجد فيه الفعل قالبه الخاص، و فيه تقال كلمات النهاية و يستبد فيه بعضهم ببعض، و كل حياة فيه هي صورة للقدر."[11] فالرواية عنده لا تدعو إلى التشاؤم كما يبدو لنا من أول لحظة، بل تصور حالة تجعلنا نبحث عن نقيضها، لأن تشخيص الداء يدعو للبحث عن دوائه. و هي بذلك تدعو إلى التفكير في واقع اليوم يطرحه الكاتب من أجل تحقيق عالم سعيد. و عندما نأتي إلى دراسات روايات كامو، تبدو لنا و لأول وهلة عوالم حزن و كآبة، ذلك لأن كامو يهتم بالنقيض دائما مما يضطره إلى استعمال أسلوب الرمز و التروية. و الدارس لمثل هذه الأعمال، لا يمكنه فهمها حق الفهم إلا بعد الاطلاع على فلسفته بكون الرواية عنده، هي تلك التي تؤكد حقيقة "العبث" و تجسد في الوقت نفسه "التمرد" ضده.[12] و مع هذا، فإن ما حققه كامو باعتباره كاتبا و روائيا و مسرحيا يفوق كل التفوق ما حققه كامو باعتباره كاتبا روائيا و مسرحيا يفوق كل التفوق ما حققه في المجالات الأخرى.[13]

و نشرت لكامو ثلاث روايات: "الغريب" سنة 1942م، الطاعون (La peste) سنة 1942م , "السقوط" (La chute) سنة 1956م , و أعرض عن نشر "الموت السعيد"(La mort Heureuse) ووافته المنية قبل أن يكمل "الإنسان الأول"(Le premier Homme) .

تعتبر روايتا: «الغريب»و «الطاعون» من أهم أعماله الأدبية الفلسفية، تجري أحداثهما على التوالي بالجزائر (العاصمة) ووهران. أما السقوط فتجرى أحداثها بمدينة "أمستردام" حيث الضباب و الكآبة. أما "الموت السعيد" و هي رواية أعرض الكاتب من نشرها في حياته، فتجرى أحداثها هي الأخرى بالجزائر العاصمة و الساحل الغربي للمدينة. و أخيرا، و في الحديث عن رواية «الإنسان الأول» فإن أحداثها هي الأخرى تتحدث عن عائلة كامو و أجداده منذ نزولهم لأول مرة بأرض الجزائر.

تتحدث رواية «السقوط» عن شخصية تدعى "كلامونس" الذي كان يشتغل قاضيا بمدينة باريس. و ذات ليلة أثناء عودته، سمح و هو في طريقة على جسر نهر "السين" (La Seine) سقوطا في النهر, تبعته صرخة و استغاثة فتاة. فتوقف حائرا، ثم بعد تردد، أنصرف في طريقه إلى البيت. وظل هذا الحادث يعذبه حتى اعتزال القضاء و هام على وجهه ليحدث أول من يلقاه في طريقه بمأساته. و يبدو حديثه في ذلك و كأنه يحاكم نفسه بنفسه. و يختلف "كلامونس" عن "مرسولت" [14](Meursault.)، بكون الأول يصرح بذنبه معترفٍ بخطيئته للآخرين و سرعان ما يعتبر الناس كلهم مذنبين، بينما يبقى "مرسلت" بريئا بدلالة صمته الجميل.[15] و يظل

كلامونس إنسانا معاقراً للحانات، مغتنماً أول فرصة تتيح له الحديث مع أول قادم يسرد عليه قصته الأليمة، إلا أنه يلوذ بالصمت في آخر الرواية و تصدق حينئذ تسميته بالقاضي التائب.[16]

بطل الرواية هنا، و بحديثه إلى الناس عن ذنبه، يتم تجميعهم بالإذناب من خلال حديثه عن نفسه، و ذلك لأن هذه الرواية كتبت في آخر مرحلة من حياته و تكشف عن تأثيرات الأحداث الأخيرة للحرب العالمية الثانية وما خلقته من دمار. و قد أجاب كامو عن سؤال حول هذه الرواية بأن الأوروبيين لم يتخلصوا من شعورهم بالذنب، و لا يمكنهم التخلص من هذا العبء عن طريق الاعتراف الديني، و لهذا تجدهم يشعرون بالحاجة إلى الفعل فيعمدون إلى إصدار أحكام قاسية على الناس، و يضمونهم في معسكرات الاعتقال و يقتلونهم. وبطلي هذا، هو التصوير الدقيق لأحد الضمائر المدنية الذي يذعن للشعور بالذنب بذلك التسليم الأوربي"[17]. و تبدو هذه الرواية في نظر الدارسين أكثر تعقيدا لكونها رواية رمزية في المقام الأول. و قد لا يبعد أن تكون شخصية "كلامونس" انعكاسا لشخصية الكاتب في تعبيره عن موقف سلبي صدر منه، و أحيانا أخرى كاحتجاج على الوصف المثالي الذي كان البعض ينقلونه عن كامو باعتباره معلم الفكر و مدرس الفضيلة، و قد كان أول من ضحك من هذه التسمية ".[18]

أما في منظورنا، إن هذه الرواية تصور كامو نفسه في موقفه من الثورة التحريرية، فقد ظل يقاوم و يعترف بعدالة الثورة، لكن دون جدوى و حين لاذ بالصمت لأول مرة ثم حاول أن يصلح الوضع بندائه إلى الهدنة المدنية، كلها ملامح و صور قريبة الشبه بظروف كامو في هذه المرحلة المتأخرة من حياته. كما أن استعمال المونولوج الداخلي في هذه الرواية، و التأكيد على الذنب، من أهم الأسباب التي تدفعنا إلى اعتبارها اعترافا مباشراً ضمنه الكاتب في روايته.

أما رواية «الموت السعيد» فتكاد تكون نسخة أولية لرواية الغريب و بطلها "باتريس مارسولت" Patrice (meursault) فقد كان يقف إلى جانبه المرشد الرائع ,الصديق "زاكروس" (Zagreus) الذي أدرك ذات يوم أن الحياة التافهة ليست جديرة بأن تعاش. و بعد أن عاين بعمق حياته التعيسة، فضل الانتحار على يد "باتريس" الذي أقنعه و حصنه برسالة تشبه وصية بقتله. و ينفذ الجريمة، و ينتقل بعيدا عن ساحل البحر غرب الجزائر العاصمة حيث يقضي زمنا ثم يموت بمرض السل .

وتعبر هذه الرواية عن الكثير من الأحداث و المغامرات التي عاشها الكاتب بالجزائر. منها، سكنه بالجزائر (العاصمة) في "بيت أمام العالم" [19].(la maison devant de monde) ، المناطق الجزائرية كجبل "شنوه" الموجود غرب الجزائر العاصمة و على ساحل البحر كما ورد في روايته. و أهم حدث بالرواية، و هو مرض السل عند بطله "باتريس مارسولت" الذي كان يعاني منه المؤلف نفسه. و لعل هذا المرض الذي كشف به

المؤلف عن جزعه من الموت خلال بطل روايته، هو السبب في أعراضه عن نشر هذه الرواية في هذه الفترة المتقدمة من حياته.

و رواية «الإنسان الأول»[20]، تروى قصة الجيل الأول من الفرنسيين و دخولهم إلى الجزائر.[21] و هي تتحدث بالخصوص عن حياة الكاتب و تمتد بالشرح إلى جذور عائلته الأولى حين دخولها إلى الجزائر. و قد تردد الكاتب في تسميتها ب "آدم" (Adam)، و هو ينجو فيها منحى مسيحيا.[22]

2-دلالة "العربي" الجزائري في رواية «الغريب»:

يستعمل كامو في رواية الغريب كلمة "العربي"، للدلالة بها على ذلك الجزائري الذي يقتله "مرسولت" كما يبدو في ظاهر الرواية ، لأنه حاول الانتقام لشرفه المسلوب من أحد الفرنسيين الذي اطلق عليه كامو تسمية : "ريموند" و أخت "العربي"، هي "العربية" التي جاءت لأخيها تشتكي له من ريموند، و تطلب منه أن يثأر لها منه. كما يشير كامو الى كثرة المساجين من "العرب" الذين شاهدهم بالسجن، و كذلك إلى إحدى الممرضات التي اطلق عليها اسم "العربية" أيضا. و الذي يلفت انتباهنا أن كامو بتكرار استعماله لهذه الكلمة للدلالة بها على الجزائريين، له عنده تفسيراته الخاصة. فقد تعود الفرنسيون بالجزائر أن يطلقوها على الجزائريين ليميزوا بها أنفسهم عن سكان الجزائر، و إذا علمنا أن كلمة العربي كانت تخيف بعضهم ليفضلو بدلها استعمال كلمة "الأهالي" (Les indigène)، أدركنا المعنى السلبي لهذه الكلمة و ما تحمله في نفوس ذوي النزعة الاستعمارية من تخوف و أحقاد و عنصرية تجاه الشعب العربي بالجزائر. و قد فسر بعض الدارسين كلمة "عربي" الجزائر بقوله: " ان المستعمر يختصر هذه الكلمة إلا عند الضرورة السياسية الخاصة. يسمى "عربيا" كل ما هو ليس أوروبيا، و"مسلما" كل من هو عربي، و كل عربي كل من هو "مسلم ..." و هو استعمال غير مرضي"[23] و الذي لا شك فيه، ان هذا الخلط واضح و مقصود تعمده الاستعمار لأهداف خاصة.

غير أن استعمال كامو لهذا المصطلح في روايته، يبدو معناه مختلفا تماما عما تعودنا فهمه عند بعض مجتمعات العالم العربي، اذ يبدو لنا أنه حاول باطلاق هذه الكلمة بمعناها الواسع ليؤكد بها على الاختلاف الجذري بين الشعبين، بين من هم السكان الأصليون و المستعمرون، بين "العربي" الجزائري و مرسولت الفرنسي الآتي الى الجزائر طلبا للبحر و الشمس، و إلى هذا الاتجاه المقصود، يذهب أيضا أحد الدارسين بقوله أن: "الكاتب يكشف بطريقة غير واعية عن التضاد العرقي الموجود بين الفرنسيين أو الأوربيين بالجزائر و الأهالي"[24].

ومن بين الإشارات المختلفة التي تدعم وجهة نظرنا هذه، اختيار الكاتب موضوع الشجار المؤدي الى قتل العربي الجزائري دفاعا و تضحية من أجل شرفه. كما أكد كامو إصرار العربي على الانتقام رغم فشله في المحاولة الأولى،

ليعيد الكر و يطارد خصمه من جديد. و يهمنا أن نستعرض بعض اوصاف العربي كما قدمها كامو قبل وقوع الجريمة بقليل: "كانا يبدوان هادئين تماما و كأنهما فارحان. و وصولنا إليهما لم يغير شيئا. و ذلك الذي ضرب"ريموند" ظل ينظر إليه في صمت. أما الثاني، فقد ظل يردد نبرات ثلاث ظل يبعثها من ناي كان ينفخ فيه"[25]. و هي أوصاف اذا عدنا الى فترة كتابة هذه الرواية، نجدها تنطبق تماما على وضعية الجزائريين و موقفهم من الاستعمار الفرنسي. فالصمت و الهدوء هنا علامات للصبر و الترقب لفرصة ستتاح لهم لطرد الاستعمار. أما ألحان الناي بنبراتها الثلاث المتشابهة، فهي رمز لأحزان و آلام شعب يعزف همومه الدفينة. و يتكرر هذا الموقف الصامت مرة أخرى، و ليوحي بنفس الدلالة بقوله عندما دخل السجن: " و في اليوم الذي أوقفت فيه، أدخلت أول غرفة كان معظم المقبوض عليهم بها من العرب ضحكوا عند مشاهدتي، ثم سألوني عما فعلت. قلت لهم أنني قتلت عربيا فخيم الصمت عليهم."[26]

و الذي يؤكد نظرتنا هذه مرة أخرى، أن سئل كامو من قبل أحد أصدقائه الكتاب لماذا لم يقتل مرسولت فرنسيا بدل أن يكون المقتول بها عربيا، كما نبهه مرة أخرى إلى ما تثيره من إبهام. الا أن كامو أصر على نشر الرواية ويكون المقتول بها عربيا.[27]

كما قد نتساءل عن الأسباب التي دفعت بالمحكمة إلى إهمالها لذكر مقتل العربي كلية بالمقارنة مع تأكيدها على تصرفات مرسولت بعد موت أمه. كما نلفت بالمناسبة انتباه القارئ إلى أن حكم الإعدام الذي تبناه كامو في روايته هذه، لم يطبق و لا مرة واحدة على فرنسي قتل عربيا بالجزائر طيلة فترة الاحتلال الفرنسي بالجزائر[28]. السبب الذي يدفعنا مرة أخرى الى التساؤل عن السر الذي دفع كامو الى الحكم بالاعدام على مرسولت. وتفسير ذلك أن القانون الاستعماري بالجزائر، لم يكن يعامل العربي أو الجزائري العربي عموما بها كإنسان. و قد علق بعض الدارسين على هذا الاهمال بقوله: " لو أن رجال القانون لم ينتبهوا الى موت أم مرسولت، لأصبح القتل بدون ضحية، و كانت الجريمة ليست لها أدنى أهمية"[29]. و يبدو واضحا أن كامو يشير بذلك الى الاحتلال الفرنسي بمعاملته اللاإنسانية للشعب الجزائري كذلك المتميز من الشعب الفرنسي بعاداته و تقاليده و أصالته العربية.

كما أن أوصاف العرب عامة في هذه الرواية، تشير في مجملها الى صمت و هدوء تنبه كامو من خلاله الى وضعية تنبئ بالخطر، السكون الذي ينبيء بالعاصفة. و قد عبر بعض الدارسين عن هذه الظاهرة قائلا: " إنها صورة للتحدي و المقاومة السلبية الرامزة للشعب العربي المضطهد"[30] و أن هذه المقاومة السلبية هي : تراجع يستعين به المغلوب عليهم الى الوراء أمام قوة قاهرة في انتظار يوم الثأر، يوم يكون النصر فيه حليفهم.

و لعل توظيفه لشخصية الفتاة العربية المسلوبة الشرف، و التي قتل أخوها ذودا عن كرامتها، لا تبعد في نظرنا أن تكون هي الجزائر العربية ، سبية الاستعمار ذاته[31]، و التي توافد عليها الاستعمار بأجناسه المختلفة عبر التاريخ. و قد لا نختلف كثيرا مع بعض الدارسين الذين وجدوا في توظيفها دلالة على حالة الشعب الجزائري في ظل الاستعمار.[32]

و ننتهي الى أن توظيف صفة العربي التي الحقها كامو بالانسان الجزائري في هذه الرواية، تكشف عن جرأة الجزائري في هذه الرواية، كما تكشف عن جرأة الكاتب، و تشير الى تنبؤات صدقت بقيام الثورة التحريرية بالجزائر. فتكرارها و تأكيدها مرات عديدة بالرواية لتقابل أسماء الفرنسيين، فيه من الإشارة الواضحة إلى تمايز الشعبين تمايزا حضاريا جذريا. ثم أن هذه الاوصاف التي ألحقها بعرب الجزائر، توضح كلها تخوف الفرنسيين في تلك المرحلة الزمنية من تاريخ الجزائر، و أن صمت العرب و إن بدأ سلبيا من حيث الفعل، فهم البراكين الساكنة التي إذا ما انبعثت، ستجرف حتما في طريقها كل شيء.

---

[1] جون كروك شاك, كامو و أدب التمرد (ترجمة جلال العشري) ،د ط, د ت ، ص 276.

[2] Paul Ginestier ; Camus ; In : (La grande Encyclopedie Larousse ; T4 ; Paris 1980. p.2219. ينظر :

[3] Albert Camus ; Discours de suède ; In : (Albert Camus ; Essais Bibliothèque de la pleiade Gallimard ; Paris1981) ; P.1071.

[4] ينظر المصدر السابق, ص 1071

[5] :Albert Camus ; l'artiste et son temps ; Conférence prononcée le 14 dec à Upsal ; In (p.1083.

Albert Cumas ; Discours De suède ; p.1071

[6]

Albert Camus ; L'artiste et son temps ; pp.1079.1080.[77]

René Marill. Albères ; Le prix Nobel ; In :(Camus ; Hachette ; Paris,1964.) ; p221

[8] ينظر:

Jean Claude ; Brisville ; Camus ; Gallimard Paris 1959 ;

[9] ينظر:p.223.

فرحات الرشداوي, البيركامو بين الموت و الخلود و الأدب الحق, الفكر, ع7, تونس, 1960م , ص12.[10]

Albert Camus ; L'homme révolte ; Gallimard ;

Paris1983 ;p.314.ينظر: [11]

ينظر دراستنا المفضلة عن الروائي عند كامو ,ص(206_212) من هذه الرسالة ينظر جون كوكشاك, ص 187.[12]

المصدر السابق, ص 275.[13]

-بطل رواية الغريب.[14]

R.M, Albères ; p.239.[15] -

- الكاتب هو الذي أطلق عليه هذه التسمية.[16]

ينظر: شارل رولو, كامو الرجل الطيب (ترجمة ماهر البطوطي) . الآداب, ع 12, بيروت 1963م , ص47,48.[17]

Paris .1976 ;p.129. [18] :Morvan Lebesque * ; Camus par lui-même ; le seuil

و في تسمية أطلقها كامو على بيت كان يسكنه مع بعض أصدقائه و صديقاته. و يقع هذا البيت على مرتفع جبل بوزريعة بالجزائر العاصمة.[19]

لم توافق عائلة كامو على نشر الأجزاء المكتوبة من هذه الرواية. لكنها عادت في النهاية مؤخرا إلى الموافقة علي نشرها...[20]

P.H Simon ; Histoire de littérature française au XXème siècle; t.2 ; A.Collin ; Paris 1968 ;P162

ينظ[21]:

Et : Herbert R. Lottman ;Albert Camus ; (Traduit de l'américain par Marianne Véron) ; Le Seuil ; Paris 1980 ; P.19.

Herbert R, Lottman ; p.19ينظر:

[22]

Michele et claude Duchet ; La scolarisation de l'Algérie ; In Les temps modernes ; Mars-avr.

Paris1956 ; p1388. ينظر: [23]

R.Galliani ; Camus; l'Etranger et les arabes in (revue de l'université) d'Ottawa ; t 43 ; juil sep ; 1973 ,

p.436ينظر:[24]

تشير الرواية الى أن "العربي" ظل مرافقا لصديقه.[25]

ينظر المصدر السابق . ص 113,114.[26]

Brian T, fitch ; L'Étranger d'Albert Camus ; Larousse ; France 1972 ; p.34 ينظر:

[27]

ينظر أحمد طالب الابراهيمي، كامو في نظر جزائري، الفكر، ع9، تونس1970، ص19.[28]

Brian t fitch; p34ينظر:

[29]

ينظر المصدر السابق: ص35,[30]

[31] ينظر سعاد محمد خضر، الأدب الجزائري المعاصر، المكتبة المصرية، صيدا، بيروت 1966، ص115.

.3 Brian T Fitch; p.3[32]